مريم ابنة عمران

(العفيفة الطاهرة)

مريم ابنة عمران

(العفيفة الطاهرة)

خير النساء

يقول النبي ﷺ (**أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد –فاطمة بنت محمد– مريم عمران وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون**)[1].

ومعنىٰ الكمال: التناهي في البر والتقوىٰ والكمال في حق النساء لا يكون بالنبوة وإنما يكون بالصديقية وهي صدق في الأفعال والأقوال.

النشأة الطيبة

هيأ الله لمريم النشأة الطيبة، فقد ترعرعت في بيت المقدس حيث الزهاد والعباد والمربي الذي تولىٰ رعايتها وكفالتها هو زوج أختها ونبي زمانها زكريا عليه السلام.

والكفالة تعني تدبير الأمور والإنفاق والاهتمام بالمصالح الضرورية للحياة، وقد تسابق العباد في كفالتها فذهبوا إلىٰ نهر الأردن، واقترعوا هناك علىٰ أن يلقوا أقلامهم، فأيهم يثبت في جريه الماء فهو كافلها، فألقوا أقلامهم فاحتملها الماس إلا قلم زكريا فإنه ثبت وكان زكريا هو نبيهم وكبيرهم وسيدهم.

ولما كبرت مريم جعل زكريا لها محرابًا لا يرتقي إليه بسلام، وكان يغلق عليها بابًا، ولا يدخل عليها أحد عليها أحد غيره.

الخلوه والعبادة:

المحراب: هوأشرف المجالس ومقدمتها، وكانت هناك خلوتها بربها ومناجاتها وعبادتها ودعائها، وهذه الخلوة سنة من سنن الأنبياء، وهي موضع كنوز العلم؛ لأن القلب إذا تطهر من الشواغل أصبح محلاً لنور الحكمة.

ظهور الكرامة

عندما رزق الله مريم الهمة العالية في الطاقة والعبادة جعلها تدخل في مصاف الأولياء، وظهر لها من الكرامات ما لم يظهر لغيرها من العباد والزهاد، ﴿ فَتَقَبَّلَهَا

(1) رواه النسائي في الكبرىٰ 5/ 93، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقًا ۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ﴾

[آل عمران:37].

قال المفسرون: كان رزقها ينزل عليها من الجنة، فكان يجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف والأبواب مغلقة عليها فيتعجب من ذلك، فهذه معجزة ربما كانت ليعلمها الله تعالىٰ أن كل شيء بأمره سبحانه وتعالىٰ، وأنه يمكن أن يرزقها شيئًا بطريقة غير مألوفة للبشر، فكان مولد عيسىٰ عليه السلام من دون أب، وأن الله يرزق من يشاء بغير حساب، ومسألة الرزق من مسائل العقيده التي لا بد أن تغرس في نفوس الصغار والكبار.

البلاء العظيم

شاءت إرادة الله أن تحمل بعيسىٰ دون أن يمسها بشر، ودون أن يكون لهذا الوليد نطفة من أب، ولكنها كلمة الله النافذة.

﴿ إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ وَجِيهٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴾ [آل عمران:45].

قال مجاهد: قالت مريم عليها السلام: كنت إذا خلوت حدثني عيسىٰ وكلمني وهو في بطني، وإذا كنت مع الناس سبح في بطني وكبر، قال لها جبريل **(إني رسول ربك لأهب لك غلامًا زكيًا)** .

يقال: إن جبريل نفخ في درعها فحملت بالولد بإذن الله، ولما حملت به وضاقت ذرعًا ولم تدر ماذا تقول للناس فهي تعلم أن الناس لا يصدقونها فيما تخبرهم به، غير أن أفشت سرها لخالتها امرأة زكريا التي حملت مع مريم في نفس التوقيت.

قيل: إن أم يحي قالت لمريم: إني أرىٰ ما في بطني يسجد لما في بطنك، وبعد الحمل ذهبت مريم إلىٰ مكان بعيد عن أهلها وحينما دنت ولادة عيسىٰ عليه السلام خرجت في جوف الليل من منزل زكريا إلىٰ خارج في جوف الليل من منزل زكريا إلىٰ خارج بيت المقدس، وأحبت ألايعلم بها زكريا ولا غيره **(كان عبئًا نفسيًا رهيبًا عليها)**.

وحينما جاء المخاض، وهو ألم الولادة كانت جالسة تحت جذع نخلة في بيت

لحم تتستر به، وتعتمد عليه في ولادتها إذ لم تكن لها قابلة تعينها عندئذٍ قالت: **(ياليتني مت قبل هذا وكنت نسيًا منسيًا)**.

والله عز وجل خفف عنها، وجعل عيسىٰ يكلمها ويرشدها إلىٰ أن تهز جذع النخلة حتىٰ تساقط عليها رطبًا جنيًا، وهذه كرامة أخرىٰ لمريم وتسرية لها، ولما رآها قومها ومعها هذا الطفل أنكروا عليها شأنها وقالوا: **(يا مريم لقد جئت شيئًا فريًا)**، أي: عظيمًا شنيعًا وكثير منهم خاضوا في حقها وقذفوها بكلام قبيح فرد الله كيدهم في نحرهم.

حينما ذهبت شرقي محرابها الذي تصلي فيه من بيت المقدس، وكان ذلك في قرية يقال لها بيت لحم، فافتقدها زكريا ولم يجدها في محرابها فاغتم غمًا شديدًا، وقال لابن خالها يوسف: اخرج في طلبها، فخرج يقص أثرها حتىٰ لقيها تحت النخلة، فلما رجعت إلىٰ قومها وهم أهل بيت صالحون، وزكريا جالس معهم بكوا وحزنوا وأصابهم هم شديد.

الحل هو الصمت:

مواجهة مثل هذا الموقف الرهيب أمر في غاية المشقة، فمهما تحدثت، ومهما قالت فلن يصدقها أحد؛ لذا أمرها الله تعالىٰ بالصمت وهو أبلغ رد ﴿فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ [مريم:26].

وحين صمتت مريم أنطق الله عيسىٰ بالحجة والبيان، وكفاها الله أمرها، وسخر لها من يقوم بحاجتها، وذلك حينما سلمت لأمر الله، واستسلمت لقضائه، فأظهر الله المعجزة، ونطق الوليد بالعبودية لربه، وبرأ أمه مما نسب إليها من الفاحشة.

مريم تهاجر إلى مصر

لما علم هردوس ملك الإسرائيليين بالشام بولادة عيسىٰ أراد قتله، فعلم يوسف ابن عمها بنية الملك، فهرب بالطفل عيسىٰ وأمه إلىٰ مصر طلبًا للأمان وحملها علىٰ حمار له، حتىٰ وصل إلىٰ مكان بأرض مصر وهي الربوة التي جاءت في قوله تعالىٰ: ﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون:50].

أقامت مريم وابنها في مصر حتىٰ بلغ عيسىٰ 12 عامًا، وكانت مريم وهي بمصر

تغزل الكتان وتلتقط سنبل القمح في الحصاد، وكان المهد في منكبها والوعاء الذي فيه النبل في منكبها الآخر.

ولما مات الملك هردوس عادت مريم وابنها عيسىٰ إلىٰ الشام، وسكنوا في جبل الخليل في قرية يقال لها: ناصرة، وبها سميت النصارىٰ.

وأخذ عيسىٰ عليه السلام يدعو إلىٰ عبادة الله تعالىٰ، ولاقىٰ أشد ألوان المضايقات من الإسرائيليين حتىٰ أرادوا قتله فرفعه الله إليه.

خواطر وعبر:

* العفة والطهارة هما كنز الفتاة ، ورأسمالها ، فلنعود بناتنا عليهما.
* لكل من لم ترزق بالزوج الذي تستريح في كنفه ، أو تأخر زواجها؛ أن تقتدىٰ بمريم الطاهرة رضي الله عنها ، في التقرب إلىٰ الله بالعبادة ، والاستغراق في فعل الخيرات؛ حتىٰ تتقىٰ الوقوع في الآثام؛ فلم تبتلىٰ واحدة بما ابتليت به مريم رضي الله عنها.
* يكون الصمت حلاً لبعض المشكلات في كثير من الأحيان ، ويغفل الناس ذلك.
* عمل المرأة ليس من المنكرات؛ فقد اضطرت إليه أطهر النساء ، ولم تستكبر عنه؛ بل كانت تعمل لتنفق علىٰ ولدها ، وهىٰ العابدة التي لم تكن تألف مشاق العمل؛ إذ كان يأتيها رزقها في المحراب ، وكان زكريا عليه السلام يكفلها.

* * *